المقتطف

الجزء الخامس من السنة العشرين

يونيو (حزيران) سنة ١٨٩٦ الموافق ١٩ ذي الحجة سنة ١٣١٣

ناصر الدين شاه

قضى في غرّة هذا الشهر (مايو) ملك من اكبر ملوك الارض سنًّا واطولهم حكمًا وابعدهم اسفارًا وهو ناصر الدين شاه ايران الرابع من دولة آل قاجار (١). وُلد في ٦ صفر سنة ١٢٤٧ (١٧ يوليو سنة ١٨٣١) ولم يكن بكر ابيهِ ولكنهُ أُعطي ولاية العهد لان امهُ اميرة من آل قاجار (٢). ولما توفي ابوهُ سنة ١٨٤٨ كان في تبريز فنودي بهِ شاهنشاه على سلطنة ايران وذلك في ١٠ سبتمبر من تلك السنة لكنهُ لم يجد السكينة في البلاد ولا رآها طوع امرهِ فاضطر ان يتغلب على خصومهِ بحد الحسام. قالت جريدة التيمس" وكان البابيون في جملة من نالهُ الضيم من يدهِ فتربّصوا بهِ فرص المنون من ذلك الحين إلى ان اودى بهِ واحد منهم بعد خمسين عامًا". والذي علمناهُ نحن من فضلاء البابيين المقيمين في هذا القطر ان الخارجين منهم على الشاه شرذمة صغيرة مطرودة من جماعتهم مكروهة منهم فلا يؤاخذون بما جنت واما هم فكانوا مقيمين على ولائهِ وسيقيمون على ولاء ابنهِ. وقد جاءت الاخبار الاخيرة بما يؤيد ذلك وثبت منها ان القاتل ليس منهم

ولما استتب لهُ الملك التفت الى علاقة بلادهِ بالممالك المجاورة لها ومال الى روسيا وقت حرب القرم. ثم زحف على هرات وفتحها ظانًّا ان انكلترا لا تعارضهُ في ذلك وان عارضتهُ فروسيا تنصرهُ عليها. فاخطأ ظنهُ في الامرين واضطرتهُ انكلترا الى اخلاء هرات وذلك سنة ١٨٥٧. ومن ثم رأى ان يصادق انكلترا وروسيا معًا وثبت على صداقتهما كل ايامهِ

(١) اختلف المؤرخون في اصلهم فقال بعضهم انهم من اصل عربي. والمعوّل عليهِ من تاريخ ايران انهم من المغول من سلالة قراجار نويان احد امراء المغول

(٢) حسب القاعدة المتبعة في دولة قاجار وهي ان تكون أم ولي العهد من بيت الملك

وزار اوربة ثلاث مرات سنة ١٨٧٣ و ١٨٧٨ و ١٨٨٩ ولم يكتفِ بالسياحة والمشاهدة بل امعن النظر في كل ما رآهُ ولا سيما في المعامل الصناعيَّة . وكتب وصف ذلك باللغة الفارسيَّة لكي يطلع اهالي بلادهِ على احوال العمران الاوربي واساليبهِ

قال الاستاذ شبيري الرحالة اللغوي الشهير " تشرفت بالترجمة لهُ في زيارتهِ الاخيرة لبودابست ايامًا كثيرة وكنا اذا اضنانا التعب من كثرة الزيارات والمشاهدات وعدنا نطلب الراحة يدعوني الى غرفتهِ بعد الساعة العاشرة ليلاً لكي اخبرهُ بالتدقيق عمَّا رآهُ في نهارهِ من الاماكن والاشياء وعمَّن التقى بهم من الانام . وكان يكتب كل ما اقولهُ لهُ بالفارسيَّة ويضبط الاعلام بالحروف الافرنجيَّة لكي لا يقع تحريف في كتابتها ولا التباس في لفظها لو اقتصر على ضبطها بالحروف العربيَّة . واظنهُ جرى على هذه الخطة في كل الاماكن التي زارها لان كتاب رحلتهِ الاخيرة وهو مكتوب بالفارسيَّة بلغة سلسة ومطبوع بامرهِ في طهران ليس فيهِ علَم الاَّ وقد ضبط لفظهُ بالحروف الافرنجيَّة . ويظهر من هذا الكتاب انهُ كان من اكثر الكتَّاب تدقيقًا في وصف ما رآهُ من البلدان والمدن والقصور والحدائق والمتاحف ومن اشدهم حذرًا في وصف الذين قابلهم من كبار الانام . فاذا رأى شيئًا لم يرضهِ اغضى عنهُ ولم ينتقدهُ او اشار اليهِ من طرف خفي واذا رأى شيئًا ارضاهُ اطنب في ذكرهِ وجاهر بمدحهِ " كما يتضح من مقابلة الوصف المسهب الذي وصف بهِ مدن انكلترا بالوصف الموجز الذي وصف بهِ مدن روسيا

وقد وصف مقابلة الملكة فكتوريا لهُ في قصر وندسر بما يأتي قال " استقبلتني جلالة الملكة عند اسفل السلم يحيط بها بناتها والسيدات التابعات لها وكانت لابسة ثوبًا اسود وفي يدها عصًا سوداء ولم تكن لابسة شيئًا من الحلى . فلما نزلتُ من المركبة تقدمتُ ومددت لها يدي فصافحتني وصعدت بي على السلم ومررنا في رواق وبهو كبير مزدان بالصور البديعة الى ان اتينا غرفة رأيتها منذ ست عشرة سنة فجلسنا فيها وتحدثنا برهةً وشاهدتُ بين الحضور ثلاثة من اهالي الهند يتكلمون الفارسيَّة فقالت لي انها اتت بهم من بلاد الهند لكي يعلموها لغة أُردو . وحينما نهضتُ اعطتني طاقةً من الزهر وسارت بي الى السلم وحينئذٍ استأذنتُ جلالتها بالانصراف "

ووصف زيارتهُ للملكة في قصر اوسبرن فقال " بلغنا الروض الخاص بالملكة فلم نرَ فيهِ احدًا وهو كبير جميل فيهِ اشجار باسقة أُتي بها اليهِ من اميركا وكندا . وسرنا مسافة طويلة الى ان بلغنا القصر وكان حولهُ خيام كثيرة فسألتُ عن سبب نصبها فقيل لي انها

نصبت لامبراطور المانيا فانهُ كان عازمًا عَلَى زيارة هٰذَا القصر وهو لا يسعهُ واتباعهُ. ورأيت جلالة الملكة في الباب فتصافحنا ومشينا يدًا بيد الى غرفة دخلها معنا امين السلطان ونظيم الدولة (ملكوم خان السفير) وبرنس بتنبرج والبرنسس بيترس والسر تشريفاتي ورأيتُ من جلالة الملكة كل انس وترحيب وبعد برهة جاءت البرنسس بيترس بطبق عليهِ جوْنة صغيرة ففتحتها جلالة الملكة واخرجت منها نشانًا مرصعًا بديع الصنعة فيهِ صورتها فسلمتني اياهُ قائلة اني اعطيكهُ تذكارًا . فاعربت لها عن سروري بهذا التذكار الثمين فعلقتهُ بيدها في عنقي واعطت نشان الحمام لامين السلطان (الصدر الاعظم) "

ولما دخل بلاد فرنسا قال " من الغريب ان فرنسا وانكلترا تختلفان اختلافًا عظيمًا مع انهما جارتان يفصلهما بحر ضيق فاذا دخل المرء بلاد فرنسا رأى العادات والاخلاق والازياء واللغة وشكل الرجال والنساء والفلاحين والجنود والجبال والسهول والاشجار كل ذلك يختلف عمَّا هو عليهِ في انكلترا ". وقال في وصف اهالي باريس " اهالي باريس يشبهون الايرانيين خَلقًا وخُلقًا وما رأيتهُ من قوة البنية في انكلترا وروسيا لم ارَهُ هنا. وقد قيل ان ايران فرنسا الشرق ولم ارَ صدق هٰذَا القول قبلاً اما الآن فاني اراهُ واسلّم بهِ لان كل شيءٍ يشبهُ ايران "

وكان معتدلاً في معيشتهِ مغرمًا بالصيد والشعر والموسيقى فكان يربي الاسود ويباهي بها ويخرج في طلب الصيد فيغيب اياماً عديدة ولهُ منظومات كثيرة بعضها من جيد الشعر. وقد جمع اليهِ كثيرين من البارعين في فن الموسيقى واتى ببعضهم من باريس

وكان الحاكم المطلق في كل الشؤون ولكنهُ لم يكن مستبدًّا برأيهِ ولا متشبثًا باحكامهِ فاذا رأى مظلومًا بادر الى كشف ظلامتهِ . ويقال انهُ من اغنى ملوك الارض وقد اختلف المقدرون في ثمن ما عندهُ من الجواهر والحلى فقال بعضهم انها تساوي خمسة عشر مليونًا واوصلها بعضهم الى خمسين مليونًا ومنها العرش الذي اتى بهِ نادر شاه من دلهي ببلاد الهند

وفي غرة مايو اتى مقام عبد العظيم الحسني للزيارة في الساعة الثانية بعد الظهر وهو عَلَى ساعة من طهران فدنا منهُ رجل اسمهُ ميرزا رضى واطلق عليهِ الرصاص من مسدّس فاصاب قلبهُ وفاضت روحهُ حالاً فاعيد الى قصرهِ في طهران وأُرسل نعيهُ بالتلغراف الى ابنهِ مظفر الدين ولي العهد وهو والي اذربايجان ونودي بهِ في اليوم التالي شاهنشاه فبعث اليهِ اخوهُ الاكبر ظل السلطان يعزيهِ ويقدم لهُ الطاعة وجاءتهُ تلغرافات التعزية من الملوك والعظماء واعترفت بهِ دول الارض شاهًا عَلَى بلاد ايران

ولقد شمل الحزن على الشاه المتوفى بلاد ايران كلها وأبّنهُ وزيرها الاول تأبيناً بليغاً في الخامس من الشهر . وقام الشاه الجديد من تبريز في الثامن عشر منهُ قاصداً طهران ولعلهُ لا يبلغها قبل اسبوعين او ثلاثة

وكان المغفور لهُ ناصر الدين محبًّا للعلم والعلماء راغباً في ترقية بلادهِ وايراد شعبها موارد السعادة لكن البلاد لم ترتقِ في عهدهِ كما ارتقت بلاد يابان في عهد ملكها الحالي ولا بلاد الروس في عهد بطرس الاكبر ولا بلاد مصر في عهد محمد علي باشا ولا نالت منهُ دستوراً تجري الاحكام بموجبهِ بل بقي الحكم فيها مطلقاً كما كان في عهد اسلافهِ . وغنيٌّ عن البيان ان الملك المطلق اذا كان حكيماً عادلاً باذلاً جهدهُ في اسعاد رعيتهِ مثل جلالة الشاه المتوفى فقد لا تفتقر الرعيَّة في عهدهِ الى دستور وقانون ولكن مَن يكفل ان خلفاءهُ يجرون في خطتهِ وان لم يجروا فمن يكفل لهم ان الرعيَّة لا تنتقض عليهم . فخير لها ولهم ان تكون الاحكام مقيَّدة بدستور وقانون من ان يكونوا مثالاً في الحكمة والعدالة

ويبلغنا ان الرشوة لم تزل ضاربة اطنابها في بلاد ايران والمناصب تباع وتشترى والعلم والصناعة منحطان جدًّا بالنسبة الى ما هما عليهِ في الممالك الاوربيَّة . والايرانيون موصوفون بذكاء العقل وعلو الهمة وتاريخهم يدلُّ على انهم كانوا من نوابغ المشارقة في العلم والصناعة ومنهم اشعر الشعراء واكبر المؤرخين . ولهم الفضل الاكبر على اللغة العربيَّة وابنائها فهم جامعو متن العربيَّة وواضعو علومها وهم مدبرو الملك ومعلمو الصناعات فلو استُخدمت الوسائل اللازمة لترقيتهم الآن ما رأيناهم دون غيرهم من امم الارض

وهذه خمسون سنة ارتقت فيها ممالك اوربا واميركا ارتقاء لم يُعهد لهُ نظير في القرون الخوالي ودعت امم الارض لتشاركها في هذا الارتقاء حتى ان ما استفادهُ الانكليز والفرنسويون والالمانيون والاميركيون من داقي وكاثن وهملتز وفمن وديماس وبرتلو وموريس واديصن وما بنوهُ على مباحث علمائهم وفلاسفتهم منذ مئي عام الى الآن لا يضنون بشيء منهُ على احد ولو كان من اهالي اواسط اسيا ومجاهل افريقية . فاي نفع كبير جنتهُ بلاد ايران من ذلك كلهِ واي تقدُّم حقيقي تقدمتهُ في هذه الخمسين عامًا

ويظهر لنا ان المغفور لهُ الشاه المتوفَّى كان يرغب في ترقية بلادهِ وجعلها مثل ارقى الممالك الاوربيَّة ولكنهُ لم يطرق السبيل المؤدي الى ذلك . فلو جرى مجرى امبراطور يابان فبعث بكثيرين من الفتيان من بلادهِ إلى اشهر مدارس المانيا وانكلترا واميركا حيث يتعلمون العلوم العالية ويهذَّبون احسن تهذيب — حيث يكتسبون فضائل الاوربيين ولا يتعلمون شيئاً من رذائلهم

لعاد هؤلاء الفتيان الى بلادهم رجالاً اهل علم ودراية وغيرة وطنيَّة ومقدرة على ادارة مهام المملكة واجراء العدالة ونشر التعليم والتهذيب بين ابنائها فلا يمضي عليهم عشرون عاماً حتى يخطوا بها خطوة كبيرة في سبيل العمران ويبقى عليهِ حينئذٍ ان يمنح البلاد دستوراً تتمتع بهِ وقانوناً تجري عليهِ حتى يحكم الرعيَّة بعقول عقلائها لا بارادة الخاصة . فان المرء مهما كان حكيماً لا يقتصر على رأيهِ في ادارة بيتهِ فما يكون شأنهُ في ادارة سلطنة واسعة الاطراف . فلو جرى جلالة الشاه على الخطة ٱلَّتي ذكرناها لارتقت بلادهُ في عهدهِ كما ارتقت بلاد يابان عَلَى الاقل وبلغت الشأو الذي كان يتمناهُ لها

وعسى ان يكون نصيب تلك البلاد في عهد خلفهِ مظفر الدين شاه اوفى من نصيبها في عهدهِ فيجري جلالتهُ على الخطة التي يحكم بصحتها العقل ويؤيدها النقل وهي اخذ العلم عن اربابهِ وبثهُ في البلاد كلها وإشراك عقلاء الامة في شؤونها والاعتماد عليهم في ادارتها فانهُ اذا فعل ذلك لم يمضِ على بلاد ايران عشرون عاماً حتى تصير من الطبقة الاولى بين ممالك الشرق ويرتع اهلوها في بحبوحة الراحة والامن

ايطاليا والحبشة

لم تكد دول اوربا تخرج من مؤتمر برلين حتى طمحت ابصارها إلَى افريقية ولم تشأ ايطاليا ان تتأخر عن غيرها في هٰذَا المضمار فابتاعت اصاب من سلطان دنيكلي لخزت الفم لسفنها عَلَى شاطىء البحر الاحمر شمالي بوغاز باب المندب ثم بعثت الف جندي إلَى تلك البلاد لقصاص الذين قتلوا بعضاً من رجالها فاحتلوا مصوَّع ولمَّا لم يجدوا التتلة اخذوا يوغلون في بلاد الحبشة رويدًا رويدًا . فارسل اليهم النجاشي يوحنا قائدًا من قوادهِ لطردهم من بلادهِ فالتقى بهم سنة ١٨٨٧ واثخن فيهم وكانوا خمس مئة محارب فلم ينجُ منهم الاَّ بعض الجرحى عادوا إلَى مصوَّع واخبروا بما جرى لهم . لكنَّ ايطاليا لم تفشل ولم ترجع عن عزمها فعبَّأت الجنود وبعثت بهم إلَى بلاد الاحباش

ونشبت الحرب حينئذٍ بين الملك يوحنا والدراويش فتغلب عليهم اولاً واستاق سباياهم ثم اصابتهُ رصاصة قضت عليهِ فظن الايطاليون ان قد خلا لهم الجو ومهَّدت السبل لامتلاك بلاد الحبشة وكانوا يثقون بالامير منلك امير شوى وهي بلاد واسعة جنوبي بلاد الحبشة لانهُ احسن إلَى روَّادهم فشدُّوا ازرهُ واعترفوا بهِ ملكًا عَلَى بلاد الحبشة واهدوا اليهِ عشرة